شعر التوبة والغفران عند أبي نواس

طارق العوسج*

تقديم:

في رؤية فكرية تتجاوز ما أثير حول توبة أبي نواس وشعره في الزهد والتوبة سنحاول في هذه الدراسة مناقشة هذه القضية التي شغلت بال القدامى والمحدثين من النقاد والأدباء وخاصة المؤرخين منهم، وذلك من خلال إعادة قراءة أشعار أبي نواس، وخاصة قصائده في الزهد والتوبة قراءة فاحصة وواعية، حتى نصل إلى اقتناع كاشف يؤكد لنا صدق توبته وإخلاصه من خلال إعادة النظر في أشعاره حيث إننا لا نعلم أن شاعراً من شعراء اللغة العربية، ـ وربما من شعراء غير العربية ـ قد بلغ ذكره الخافقين ونال الشهرة التي بلغها شاعرنا الحسن بن هانئ بن الصباح الحكمي اليمني المكنى بأبي نواس الذي ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخه، وأسهب ابن المعتز في كتابه "الطبقات" في ذكره والتعريف به فضلاً عمّا جاء في كتاب الأغاني الذي بالغ في التركيز على ذكر معايبه، وهذا ديدنه مع من ترجم لهم من الشعراء.

نسبه وشهرته ونشأته:

وذو نواس نسبة كانت تطلق على ملوك اليمن، فلحقته، وقد اختلفت الروايات في نسبه، حيث تربع أبو نواس على عرش الشهرة الأدبية، ولم ينافسه هذه الشهرة كبار الشعراء، حتى المتنبي الذي قال عن نفسه:

---

* أستاذ البلاغة والأدب المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سابقاً.

أَنَا الذي نظرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِـي   وأسمعتْ كَلِمَاتـي مَنْ بِهِ صمـمُ

وكذلك قوله العنيف الجريء:

ولا تحسبنّ المجد زقـاً وقينـة   فما المجد إلاّ السيفُ والفتكةُ البكرُ
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى   لك الهبوات السود والعسكر المجـر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما   تداول سمع المـرء أنمله العشـر

أقول، بكل ثقة، ولا المتنبي الذي ترك من بعده دوياً شغل الناس، يتناشدون حكمه، وشكواه المرة، وأهاجيه في كافور، فالشهرة غير النبوغ، وإن كان أبو نواس قد بلغ من النبوغ ما يمكنه امتطاء صهوة المجد ونيل الإعجاب.

ـ شهرته:

اشتهر أبو نواس شهرة واسعة حتى التصقت به قصص ضربت في آفاق البلاد، فاستحال إلى شخصية أُسطُوريّة تتعلق بها أصناف من أخبار الظرف، والمجون، والفكاهة، واللباقة، والجرأة، بل والسفه والدعابة العابثة، وأكثر هذه الأخبار من وضع القُصاص، والمغرضين، والشعوبيين، مثله مثل عنترة العبسي في الشجاعة، فقد وضع الحشاشون حول هذه الشخصية من الأحداث التي لا تتفق مع منطق العقل الرصين. وسيرة عنترة موجودة بين الأيادي يتداولها الناس متى شاؤوا، وكلها غرائب حتى جمح بأحدهم الخيال أن جعله أحد أبطال الحروب الصليبية، فَظُرف أبي نواس معروف، وشجاعة عنترة متفق عليها عند الرواة، غير أن الزيادات، والأغراض هي التي تنحرف بالأحداث عن الحقائق، أو أنها تلقي على الحقائق غباراً كثيفاً لا يسمح للنور أن يصل إليها، وعلى الباحث أن يعتمد الكتب المؤثقة، ويُعمل العقل والتمييز.

ولد شاعرنا في الأهواز وفق أكثر الروايات، أو في البصرة. علماً بأن الأهواز كانت من توابع البصرة لقرب موقعها من مركز السلطان السياسي يوم أن كانت البصرة (صرة الدنيا) و (سقف العالم)، وكانت الولادة سنة (١٤٠هـ) على وجه التقريب، وقد أشار إلى هذا التاريخ الدكتور عمر فروخ في كتابه "تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول" فهو بصري، ففيها نشأ، وتثقف، واشتهر أول ما اشتهر، ثم ساح في البلاد.

ـ ثقافته:

تردد أبو نواس على حلقات الدرس في المسجد الجامع الذي درس فيه أكثر علماء

الملة الإسلامية في فجر الإسلام. فقد نهل من علوم القرآن الكريم، والحديث الشريف، وعلوم العربية من أخبار، ورواية أشعار، ونحو، ولغة، وقراءات، وفقه.

كانت ثقافة شاعرنا إسلامية خالصة، فقد طلب الحديث على شيوخ الحديث من أمثال حماد البصري شيخ علوم الحديث في زمانه. وقرأ القرآن الكريم على أشهر علماء القراءات في عصره يعقوب بن إسحاق الحضرمي، ودرس النحو على إمام جيله أبي زيد النحوي البصري، وقد اتصل بسيبويه إمام النحو، ودرس الأيام على أبي عبيدة معمر بن المثنى، ودرس الرواية والشعر على راوية زمانه خلف الأحمر.

قال عنه ابن المعتز في طبقاته: "كان أبو نواس عالماً، فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وكان أحفظ الناس لأشعار القدماء والمخضرمين، وأوائل الإسلاميين والمحدثين"، ثم أجمل القول فيه فقال "كان لأبي نواس مشاركة في أكثر ألوان المعرفة، متفنناً في العلم، قد ضرب في كل نوع منه بنصيب".[١]

هذه بداية شاعرنا، ومن كانت هذه بدايته، لابدّ أن يرجع إلى الصواب، مهما طال به الزمن، إذا ما زلت به القدم، وقد رجع حقاً، فقد رأيناه يندم أشد الندم عمّا فرط منه من المجون، ومما لا يحمد ذكره ولا التلميح إليه، فقد كان يقنع نفسه بقوله الحكيم الرزين:

يا كبير الذنب عفو ا لله من ذنبك أكبر

ثم يرجع إلى نفسه ويصارحها على ما اقترفت في جنب ا لله فيقول:

ذَهبَتْ جدّتِي بِطَاعَـة نَفْسِي ... وَتَذكرتُ طَاعَةَ ا للهِ نَضْـواً
لهفُ نَفْسِي عَلى لَيَـالٍ وأيّـا ... مٍ، تمليتهنّ لعبـاً ولَهْـواً
قد أسأنا كلّ الإساءةِ فاللّهُمّ ... صفْحاً عنّا، وَغفـراً وعَفْـواً

إن الذي جنى على أبي نواس هو المجتمع الذي خرّج عصبة السوء التي تزعمها والبة بن الحباب الأسدي، وكان من أصحابه مطيع بن إياس الكوفي الماجن الزنديق، وانخرط إليها ردحاً من الزمان خلف الأحمر رواية العرب، وعلاّمة الشعر، وكان منهم أبو الهندي، وأبو الشيص، والقراطيسي الكوفي، وزرزر الذي فاق بعض أقرانه في خمرياته ومجونه، وأبو العتاهية قبل تنسكه، وغيرهم، وكل هؤلاء قد ترجم لهم ابن المعتز في طبقاته، ولهم أخبار

---

١ عبد ا لله ابن المعتز، **طبقات الشعراء** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٣٨)، ص٧٩٨.

مخزية ومخجلة، وإذا أردنا التوسع في ذكر أخبار هؤلاء الخلعاء والمجّان، ففي يتيمة الدهر للثعالبي، ومعجم الأدباء لياقوت الشيء الكثير، مما لا يحمد الاطلاع عليه.

كان هؤلاء السفهاء يمثلون عصبة سوءٍ لا تحتشم من فعل المنكرات، وكانت في شاعرنا جذوة نشاط ساقته إلى هؤلاء الأشرار، فسرعان ما جذبوه إليهم، وسرعان ما انغمس في حمأة الرذيلة معهم، ففاق أقرانه، وأطاع شيطانه، فركب غارب الغواية، وتمادى في الضلالة، حتى انجلت عنه الغشاوة، فتاب بعد جهد، ورجع من حيث البدء، ـ فعاد والعود أحمد ـ، مكفّراً عن سيئاته بالندم، والاستغفار، وصاغ شعره معبراً عن توبته وندمه عمّا كان منه مستغفراً، ولازم زاوية من زوايا بغداد، وانقطع للعبادة، حتى وافاه الأجل المحتوم، بعد أن نيّف على الخمسين، كما ذكر ذلك الدكتور زكي مبارك في كتاب المعارضات، بعد الاسترشاد بأحداث من تاريخ بغداد، التي ذكرها الخطيب البغدادي في تاريخه.

أحب شعر أبي نواس الناس عامة، وأهل الأدب خاصة، بما فيهم الفقهاء، والنساك، حتى قال عنه الفقيه الزاهد المشهور سفيان بن عيينة: إنه أشعر الناس في قصيدته في جنان والتي منها:

يا قمراً أبصرتُ في مأتمٍ ... يَنْدبُ شَجْواً بين أَتْرابِ
يَبْكِي فَيذْرِي الدَّر من نرجسٍ ... وَيلطُمُ الوردَ بِعُنّابِ
لاَ تَبْكِ مَيْتاً حَلَّ في حُفْرَةٍ ... وابْكِ قتيلاً لكَ بالبابِ[٢]

بدأ شاعرنا حياته الشعرية هائماً بفتاة من أهل البصرة، اسمها جنان، تعلقها وأكثر القول فيها، وهي معرضة عنه، فجاء شعره فيها، عذريّاً وعفويّاً، لا يخلو من عذوبة مستطابة، ورقة فطرية مستملحة من مثل قوله:

حَامِلُ الهوى تَعِبُ ... يَستخِفُّهُ الطَّرَبُ
إنْ بَكَى يَحِقُّ لَهُ ... لَيْسَ مَا بِه لَعِبُ
تَضْحكين لاهِيَةً ... وَالمحبُّ يَنْتَحِبُ
تعجبين مِن سَقَمِي ... صَحَّتِي هِيَ العَجَبُ

٢ الحافظ أبي أحمد بن علي الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد** (بيروت: دار الكتاب العربي، ط..، ..١٩)، ج٧، ص٤٣٧.

كُلَّمَا انقضَى سَبَبٌ　　　مِنْكِ جَاءَنِي سَبَـــبُ[٣]

واستمر يكثر القول فيها، ولكن من دون طائل، فانقلب الأمل يأساً، والقرب بعداً فقال:

دَعْ جناناً وَحُبَّـــها　　　عنْكَ إِنْ كنْتَ عَاقِـلاً
أَنْتَ إِنْ لم تمتْ بِهَا　　　العَامَ لم تنجُ قَابِـــلاً[٤]

ولما ودع أبو نواس حب جنان، ودع البصرة بكاملها، ثم صار يفكر في الذهاب إلى الكوفة، ثم إلى بغداد التي صار فيها علماً ولا نقول من أعلامها. وقد جلبت إليه هذه الرحلة البلايا والرزايا، خاصة بعد انضمامه إلى عصبة السوء التي تزعّمها والبة بن الحباب الأسدي الذي هتك الحجب بينه وبين الفضيلة.

- ثورة أبي نواس على الشعر ونزعته التجديديّة:

أكثر النقاد الكلام حول قضية التجديد في الشعر، ونسبوا إلى شاعرنا محاولة الانفلات من سنة الشعراء التي اعتادوا عليها ببدء قصائدهم بذكر الديار، والنساء، وهي طريقة تقليدية درج عليها الشعراء بدءاً منذ زمن امرئ القيس، وقد دافع عنها القدماء وفي مقدمتهم ابن قتيبة، في مقدمة كتابه القيم (الشعر والشعراء)، وبقي الشعراء ينظمون وفق هذا العمود الشعري المتوارث، إلى أن جاء أبو نواس، فسخر منهم، ودعا إلى استبدال المطالع الطللية والغزلية بذكر الخمر، فقال في إحدى قصائده مهاجماً الشعراء القدامى:

لا تَبْكِ ليلى، ولا تَطْربْ إلى هنْدٍ　　　وَاشرَبْ عَلى الورْدِ مِنْ حَمْراءَ كَالوَرْدِ

وقد حملته هذه الدعوة إلى سوق الشتائم كيلا لاعدا، إلى الشعراء التقليديين، فقال في بعض قصائده:

دَعْ الأطلاَل تَسْفِيها الجَنوبُ　　　وتبكي عَهْدَ جدّتها الخُطُوبُ
ولا تَأخذْ عَنْ الأعرابِ لهواً　　　ولا عيشاً فعيشهم جَدِيــبُ

وقال ساخراً:

قُلْ لِمَنْ يبكِي عَلَى رسمٍ دَرَسْ　　　وَاقفاً، مَا ضَرَّ لو كَان جَلَسْ

---

٣ **ديوان أبي نواس**، باب الغزل، جمع وتصنيف د. بهجت الحديثي، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤).

٤ المصدر نفسه.

أُترك الربّعَ وسَلْمَى جَانِبـــاً وَاصطبحْ كَرْخِيَّةً مثلَ القَبَسْ

وهكذا يستمر في مثل هذا الهذر الذي لم يجد له آذاناً صاغية، مما اضطره إلى هجره، والرجوع إلى النظم على طريقة الشعراء التقليديين.

كان يتخلل هذا الهجوم على مطالع القصائد الشيء الكثير من الشعوبية والمجون، لأن أبا نواس قد نسي ما بدأ به من دراسة العلوم الشرعية في جامع البصرة، بل نسي الدين والوقار فاتبع الشيطان، أو أن الشيطان قد امتطاه، فاندفع يغني بكل ما يرضي نفسه الأمارة بالسوء، ومع ذلك فقد كان يحس بين الفينة والأخرى أنه سائر في طريق الغواية والضلال، ولابدّ له من تقويم هذا المسار الخاطئ. ولقد كانت ومضات الإيمان تمس شغاف قلبه، فتحمله على الاعتراف بأن الدين حق، ولابدّ من التوبة والنزوع إلى الحق.

روى الخطيب البغدادي في تاريخه أن أبا نواس اصطحب قوماً، فصاروا يكثرون القول في الجنة، والثواب، والعقاب، ثم ما لبث أن نطق بشعر فيه سفه عظيم، فامتعض القوم، ووبخوه طويلاً، وعزموا على ترك صحبته، فقال لهم: ويحكم، والله إني لأعلم ما تقولون، ولكن المجون يفرط علي، وأرجو أن أتوب، ويرحمني الله ثم قال:

أَيَّةُ نارٍ قَدَح القـــادِحُ وَأَيُّ جدٍّ بلـغَ المَـازِحُ
للهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعـظٍ وَنَاصحٍ لو حُذِرَ النّاصِحُ
يَأْبَى الفَتَى إلاّ اتبَاعَ الهَوى وَمَنْهَجُ الحقّ لـه واضِحُ
منِ اتقّى اللهَ فَذاكَ الـذي سِيقَ إليـه المَتْجرُ الرابـحُ
فَاغدْ فما في الدّين أُغْلوطةٌ وَرُحْ بِمَا أَنْتَ لـه رَائِحُ

يقول الخطيب البغدادي، وقد رفع الخبر إلى الجاحظ، بعد أن أدام النظر في تمام القصيدة، فيقول: "لا أعرف من كلام الشعر أوقع، ولا أحسن من كلام أبي نواس في تلك الأبيات". والقصيدة كما ذكرت قالها وهو يتخبط في دياجير المنكرات والآثام، وهذا يفسر لنا أن بقية من دين قد انزوت في طيات ضميره تنتظر الفرصة المواتية لتأخذ صاحبه إلى طاعة الله سبحانه.٥

ولا شك أن وخزات من ضمير حي كانت تنبه شاعرنا للإقلاع عن غوايته، فكان

٥ تاريخ بغداد، ج٧، ص٤٤٢.

ينتهز المناسبات المواتية للإعلان عن هذه الروح الخيرة التي انطوت عليها نفسه مدة من الزمان.

نلتمس تراجعه عن اندفاعه أيام شبابه، وهجومه الشرس على الشعراء التقليديين فيعود ويبدأ قصائده بذكر الأطلال، والنساء، ثم يضمن هذه القصائد الإشارات الدينية التي تتساوق مع الحشمة والاعتدال.

وهذه أبيات من قصيدة جزلة الأسلوب، جميلة الأفكار، يبدأها بالنسيب، مع الإشارة إلى المعاني الدينية، يمدح فيها الرشيد فيقول:

حَيِّ الديـارَ إذِ الزمـانَ زمـانُ ... وَإِذِ الشّبّاكُ لنا حَرَى وَمَعَانُ
يَا حَبْذَا سفَـوانُ من متربّـعٍ ... ولربَّما جمعَ الهَوى سَـفَـوانُ*
لـما نزعت عن الغواية والصبـا ... وخدت بي الشدنية المذعـانُ
وَإلى أَبي الأُمنـاءِ هـارونَ الـذي ... يَحْيَا بصَوْبِ سمائِهِ الحيـانُ
هارونَ أَلَّفَنا ائتـلافَ مـودَّةٍ ... مَاتتْ لها الأحقادُ والأضْغَانُ
في كُلِّ عـامٍ غـزوةٌ وَوِفَـادَةٌ ... تَنْبَتُّ بين نـواهمـا الأَقْـرَانُ
حجٌ، وغزوة ماتَ بينهما الكَرَى ... باليَعْمَلاَتِ، شعارُها الوَخَدَانُ*
يرمي بهن نيـاطَ كُل تنوفـةٍ ... في الله رحّـالٌ بهـا ظَعَّـانُ
حتى إذا واجهن إقبال الصفـا ... حَـنَّ الحطيمُ وأَطّتِ الأركانُ
يَصْلَي الهجيـرَ بـغرّةٍ مَهْدّيّـةٍ ... إنّ التّقيَّ مُسَدّدٌ ومُعـانُ

والقصيدة موجودة بكاملها في الديوان، يبدو من خلالها أن أبا نواس قد اختار ألفاظها ومعانيها اختياراً، لا لكسب رضا الممدوح فحسب، وإنما لإرضاء نفسه، ومشاعره التي كانت في سِنَةٍ من النوم، فذكر غار حراء، والحج، والغزو، والتقوى، وكلها كلمات تخبرنا بأن صاحبنا قد تهيّأ لكي يحيا حياةً جديدةً، حياةَ الجدِ والوقار، وربما كان قد قارب الأربعين كما يحدد هذا التاريخ الدكتور زكي مبارك في المعارضات.

---

* سفوان: موضع بالبصرة.
* الوخدان: نوع من سير النياق.

استمر أبو نواس ينظم أشعاره وفق هذا الأسلوب الوقور، فإذا وقف أمام كبير من كبراء الدولة، نراه يحتذي طريقة جرير والفرزدق والأخطل، وقد فاقهم جمالاً بحسن الانتقال من ذكر الأطلال والنساء، إلى ذكر صفات الممدوح، فالقصيدة عنده هيكل متكامل، يجملها روعة الانسجام، فكأنه بذر موضوع (وحدة الموضوع) في النقد الحديث، الذي أكثر فيه القول أصحاب جماعة الديوان، وأهمهم العقاد.

ونعتقد أن هذا الانسجام في الشكل من جمال الانتقال وخفته، ولطافته هو من نتاج تطور البيئة، ونمو الحضارة، وانتشار الثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية في تلك العصور، لأن المجتمع العباسي صار يهتم بجمال كل شيء في الحياة، فتفننوا في المأكل، والملبس، والمسكن، بعد أن كانوا يسكنون البوادي والخيام قبل الإسلام. فلم تعد القصيدة العربية كما كانت في العصور السابقة وعاءً لموضوعات شتى لا رابط بينها سوى البحر والقافية، وإذا أردنا الربط كما حاول بعض الأدباء المحدثين، فهو عن طريق التخيل، والتقدير، وهو جهد مضاع.

وأرى من المناسب والمفيد أن أشير إلى تلك القصيدة المحكمة والتي سار ذكرها بين الشعراء والأدباء في كل العصور حيث مدح أبو نواس في هذه القصيدة الرائية الشهيرة، ابن الخصيب، عامل الرشيد على مصر. قيل أن الرشيد على جلالة قدره قد وجه لوماً إلى الشاعر في قوله:

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيبِ ركابُنا فَأَيّ فتًى بعد الخصيبِ تَزُورُ؟

فقال له: ماذا أبقيت لنا بعد هذا القول؟

وقد حملت هذه القصيدة الشعراء على معارضتها و لم يصل إلى الجو الذي حلق فيه أبو نواس في قصيدته أحد سوى القسطلي الأندلسي في مدحه للحاجب العامري.

نظم أبو نواس هذه القصيدة على طريقة الحوار بينه وبين ربة بيته وقد عزم على الارتحال عن دارها طلباً لجلب المنفعة لها من الخصيب، وهذه حجة لبقة لإقناعها بالسفر البعيد، والارتحال الذي لابُدّ منه، وقد حاولت هذه المرأة الضعيفة أن تثني زوجها عن الفراق، وقد استشفعت بدموعها التي أثارت الألم في نفس الشاعر، ولكن دون فائدة، وذكرته أن ستكون من بعده عرضة للمعاطب، وكان يقنعها بما سيجلبه لها من الخصيب، مما يجعل النساء يحسدنها لعظم الجائزة السنية التي سوف تحصل عليها.

والقصيدة من عيون الشعر العربي، وتتضمن حسن الانتقال الـذي نوهنـا عنـه، وكـان هذا الانتقال من النسيب إلى المديح بصورة مذهلة لفتت أنظار الخاصـة مـن الأدبـاء حيث بدأ الشاعر القصيدة بالنسيب، وفق العمود الشعري، والطريقة الموروثة فقال:

أَجـارةَ بيْتَيْـنا أَبُــوكِ غَيُــــورُ ... وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَديْكَ عَسِيـرُ
وَإِنْ كنتِ لا خِلْماً، ولا أنتِ زوْجَةٌ ... فلا بـرحَتْ دونـي عليكِ سُتُورُ
تقولُ التـي عن بيتها خـفَّ مرْكَبِي ... عزيزٌ علينا أن نــراكَ تسيــــرُ
أَما دونَ مصْرٍ للغنـَى مُتطَلّـــبٌ؟ ... بَلَى إنّ أَسْبَابَ الغِنَـى لَكثِيــرُ
فَقلتُ لها وَاستَعْجَلَتْـهَا بَــــوَادرٌ ... جَرتْ فجَري في جريْهـنَّ عَبِـيرُ
ذَريني أُكَثّرْ حاسـديكِ بـرحْلَــــةٍ ... إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميــــرُ
فَتًى يَشْتري حسْن الثنــاء بـمالــه ... وَيَعْلَمُ أنَّ الدائـراتِ تـــــدورُ
فما جازَه جُودٌ ولا حَـــلَّ دونَـــه ... وَلكنْ يسيرُ الجـودُ حيثُ يسيرُ
إذا لم تزُرْ أرضَ الخصيـبِ ركـابُنا ... فأيُّ فتًى بَعْدَ الخصيـبِ تـَزورُ
فلم ترَ عينـي سُؤدَداً مثـل سـؤدَدٍ ... يحِلُّ أَبُو نَصْـرٍ بـه ويَسيـــــرُ

تظهر من جو هذه القصيدة والقصائد التي جاءت علـى هـذا النمـط، مسـحة مـن الوقار والجلال، وهذا يعني أن شاعرنا صار يتقدم بخطـى حثيثة نحـو الجد والحشـمة والتروي. بل صرنا نراه يتقدم نحو الفضيلة بخطى أسرع من ذي قبل، فقـد وجدنـا في ديوانه قصائد رائعة يعلن في بعضها عن ندمـه عمّـا اقترفـه في شـبابه أيـام طيشـه، ثـم تهتاج به العاطفة ويستبد به الندم، فيعترف بما صدر منـه مـن آثـام، معتـذراً إلى ربـه، نادماً عن شناعة أفعاله، معترفاً اعتراف المذنب، قائلاً:

يا دارُ ما فعــلتْ بكِ الأيــــامُ ... لم تبــق فيــك بشاشــة تستـــامُ
عَرَمَ الزمّانُ على الذين عهدْتُهُمْ ... بكِ قَاطِنـــين وللـــزّمان عُــــرامُ
أَيّامَ لا أَغْشَى لأَهْلكِ مَنْـــزلاً ... إلاّ مُــــرَاقـبــــةً عليّ ظــــلامُ
ولقد نَهزتُ مع الغُواةِ بدلْـوهمْ ... وأَسَمتُ سرْحَ اللّهْوِ حيثُ أَسامُوا
وبَلغتُ مَا بَلَغَ امرُؤٌ بشبـــابــهِ ... فإذا عُصــارَةَ كـلِّ ذاكَ أَثـــام[٦]

---

٦ **الديوان**، ص٤٠٧.

هذا هو السحر الحلال إن صحت المقولة، فقد بدأ الضمير يناجي صاحبه، فهو يعلن صراحة أن كلّ ما اكتسبه في ماضيه باطل وهو نادم على هذه الحياة المليئة بالأكدار والأقذار، حياة كلها سفه وغواية والعياذ با لله.

والغريب الذي يلفت النظر أن أبا نواس يصطنع الحكمة، ويلوذ بالدين، والأمين كما يصفه السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء معرض عن كل نصيحة، غارق في الملذات حتى قال فيه وهو يترجم له "لم نجد له مأثرة حتى نذكرها له".

قد يكون لحكم السيوطي قسوة على سيرة الأمين، ولكنني لا أدري لماذا حمل عليه هذه الحملة الشعواء،[٧] وسبحان ا لله الذي صيّر النواسيّ واعظاً، والخليفة عابثاً.

وحدث أن الوزير الفضل بن الربيع، سجن الشاعر لشربه الخمر، وطال السجن، فبعث أبو نواس بقصيدة في أسلوب فكه، تشوبها الروح المرحة، يعلن فيها توبته، مع التزامه بوقار الدين وواجباته الشرعية فيقول:

أَنْتَ يَا ابن الرّبيع أَلْزَمْتَنِي النّسكَ وعَوَّدْتَنِيهِ، وَالَخيْرُ عادَهْ
فَارْعَوَى بَاطِلي وَأَقْصَر حَبْلِي وتبدّل عفّةً وزَهَادَةْ
لو تراني ذكرتَ للحسنِ البَصْرِي في حُسْنِ سَمْتِهِ أو قَتَادَةْ
المَسابِيحُ فِي ذِرَاعِيَّ والمصْحَفُ في لَبَّتِي مكانَ القِلاَدَةْ

فاعتبر الوزير هذا التصريح عهداً من الشاعر، فأطلق سراحه.

اشتاقت نفس الشاعر إلى أداء فريضة الحج، ليعلن أوبته إلى رحاب ا لله الغفور الرحيم، فيؤدي الفريضة، فيسمع تكبير المكبرين، ويلبي مع الملبين، وهو يطوف بالبيت العتيق، فتثير التلبية الشرعية مشاعر نبيلة في نفسه، وتضرب على أنياط قلبه، فتنطقه ألحاناً شجية، تذوق روحانيتها، وأحس بالبون الشاسع بين حياة البعد عن ا لله، وبين القرب منه، ألحاناً عذبة عذوبة السلسبيل، وناعمة نعومة الحرير، جميلة ما بعدها من جمال، يسمعنا شعراً مقتبساً من شعور، ومقتطفاً من عاطفة مثارة، لا يعبر هذا الشعر إلاّ عن صدق قائله فيقول مناجياً ا لله تعالى ملبّياً في خشوع وخضوع:

---

٧ **تاريخ الخلفاء**، للسيوطي.

إِلَهـــنا ما أَعْـــدَلَـكْ   مَلِيكَ كُـــلِّ مَنْ مَلَـكْ
لَبَّيْـــــكَ قَد لَبَّـيْـتُ لَـــكْ
لَبَّيْـــكَ إِنّ الحمــدَ لَكْ   وَالمُلْكَ، لاَ شَـرِيـكَ لَكْ
مَا خَابَ عَبْــدٌ سَأَلَـكْ   أَنْتَ لَهُ حيث سَلَـــكْ
لَـــوْلاَكَ يَـــا رَبِّ هـــلَكْ
لَبَّيْـــكَ إِنّ الحمــدَ لَكْ   وَالمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَـكْ
كُـلّ نَـبِـيٍّ وَمَلِـــكْ   وَكـلُّ من أَهَـــلَّ لَـــكْ
وَكُلّ عَبــْدٍ سَأَلَـــكْ   سبَّـــحَ أو لبّـى فلَـــكْ
لَبَّيْكَ إِنّ الحمـــدَ لَـكْ   وَالمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَـكْ
واللّيلِ لَمّــا أَنْ حَلِـــكْ   وَالسَّابحَات في الفلَـكْ
عَــلَى مجـــاري المُنْسَلَــكْ
لَبَّيْكَ إِنّ الحمـدَ لَـــكْ   وَالمُلْكَ، لاَ شَـرِيكَ لَكْ
اعمَلْ وَبَادرْ أَجَلَــــكْ   واختمْ بخَيْرِ عَـمـلــكْ
لَبَّيْــكَ إِنّ الحمـدَ لَـكْ   وَالمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكْ[٨]

وخط الشيب مفرق أبي نواس، والشيب واعظ لكل ذي عقل، فهــو علامـة من علامات الموت، وانتهاء العمر، فلا بدّ أن ينتبه الغافل عن غفلته بهذه السمة التي تزداد يوماً بعد يوم، والشيب من أدوات أهل الوعظ. أكثر القول فيـه الشعراء، والخطباء، ونخص منهم بالذكر أبي العتاهية في شعره الزهدي الكثير، قال أبو نواس في الوعظ:

انْقضَتْ شرَّتي فعفتُ المــلاَهِـي   إِذْ رَمَى الشَّيْبُ مَفْرِقِي بالدَّواهِي
ونهتْنِي النُّهَى فمِلتُ إلى العَــدْ   ل، وأَشْفَقْتُ من مَقَــالَة نَـاهِ
أَيُّهَا الغافِلُ المقيمُ عَلى السَّــهْو   و، لا عــذرَ في المُقــام لسَـاهِ
لاَ بأَعْمَــالِنَا نُطِيقُ خَلاَصــاً   يومَ تبْـدُو السّماءُ فوقَ الجِبَـاهِ
غير أَنّي علـى الإساءةِ والتفريـ   ــطِ راجٍ لحُسْـنِ عــفْـو اللهِ

---

٨ **الديوان**، ص٦٢٣.

فهو لا ينسى أن يعظ نفسه، مثلما يعظ الناس، وهذا أمر حسن من الشاعر، يعترف بإساءاته تواضعاً لله، ويتمشى هذا المعنى مع قول سلم الخاسر في هجائه لأبي العتاهية:

مَا أَقْبَحَ التَّزهّيدُ من واعظٍ يزهّدُ النّاسَ ولا يَزْهدُ

فأبو نواس لا يعرف المغالطة، ولا يدعي الصلاح، فهو في كل زهدياته يعترف بخطئه، ثم يطلب الغفران.

لم يقف أبو نواس عند الموعظة المحضة، وإنما كان يمزجها بالحكمة التي استخلصها من تجارب حياته، ولا نستغرب إذا رأينا النادم يقول حكماً، وينطق عدلاً، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولأن بعض الندم يورث الحكمة، وكذلك المؤرّق الذي يتألم من وخز الضمير، وثقل الذنب، فهو دائم التفكير في الدنيا ونهايتها، فكم من مخدوع ازدانت له الدنيا فتراءت له حلوة نضرة قد تقمصت ثياب الحب، وهي في الحقيقة شرك للردى، وقرارة للأقذار،! فصاغ أبو نواس هذه المعاني الوعظية التي خطرت في ذهنه بشعر نفسه عليه كبار الشعراء، قال:

وما الناسُ إلاّ هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكينَ عَريقِ
فقل لغريب الدّارِ إنّكَ ظَاعنٌ إلى منزلٍ نَائِي المحلِّ سَحِيقِ
إذا امتَحنَ الدُّنيا لبيب تكشَّفَتْ لهُ عَنْ عَدُوٍّ في ثياب صَدِيقِ[٩]

قال الخطيب في تاريخه، قال أبو العتاهية: إن أبا نواس أشعر الناس بهذه الأبيات،[١٠] وتمنى أن تكون له بكل ما قاله من الشعر.

استمر أبو نواس يفكر في الحياة وعواقبها، وفي البعث والنشور، وفي الحساب والعقاب، وهو في كل هذه الأمور يردد أنغاماً مختلفة في الزهد، والدعوة إلى الانصراف عن الملاهي والشهوات المحرمة، ومتاع الحياة الزائلة والزائفة، والاستعداد للآخرة، والتزود بالتقوى والعمل الصالح من مثل قوله:

يا طالب الدنيا ليجمعها جمحت بك الآمال فاقتصد
والقصد أحسن ما عملت له فاسلك سبيل الخير واجتهد
واعمل لدار أنت جاعلها دار المقامة آخر الأبد[١١]

---

٩ **الديوان**، ص١٩٣.
١٠ **تاريخ بغداد**، ج٧، ص٤٤٣.
١١ **الديوان**، باب الزهد.

زهد أبي نواس زهد إسلامي، لم تشبه أفكار أجنبية، ولا خيالات ذاتية، ولا اجتهادات فردية، زهد يختلف عن زهد المتصوفة المملوء بالشطحات التي يحار فهمها، وكثيراً ما يعجز عن تفسيرها، كقول الحلاج: (أنا الله)، ويشير إلى نظرية الحلول، وكقول أحدهم: إن الله في جبتي، وذلك مما يتلجلج اللسان بالنطق به لشناعتها وغرابتها، ومثل حادثة المعراج لأبي يزيد البسطامي الذي ادّعى أنه عرج به إلى السماء العليا وضربت خيمته إزاء عرش الرحمن. لاشك أن هذه أفكار غريبة لم تكن معروفة في المجتمع الإسلامي في العصرين الأول والثاني، وكان الناس يتحدثون عن زهد الرسول الكريم ﷺ في الدنيا، وأنه لم يتخذ قصراً، ولم يضع قصبة على قصبة ولا لبنة على لبنة، وأنه قد غادر الحياة وهو خلو من متاعها، وهكذا كان زهد الخلفاء الراشدين وأصحاب الرسول ﷺ، وهكذا كان زهد التابعين المتمثل خير تمثيل بسيرة الزاهد الناسك الحسن البصري رضي الله عنه، فزهد أبي نواس زهد إسلامي كما قلنا، حيث جاء معتمداً على دعامتين أساسيتين هما القرآن والسنة.

قد نقول أن أبا نواس كان متقدماً على زمن المتصوفة الذين ظهروا في القرن الثالث الهجري وما بعده إلاّ أن باكورة منهم قد ظهرت في زمانه مثل ذي النون المصري.

ويستمر أبو نواس يشدو بمواعظه البليغة، منتهزاً كل فرصة لينظم فيها لحناً جديداً عذباً يدعو فيه إلى محاسن الأخلاق. قال في ذم الكبر، الذي قال فيه الرسول الكريم ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال من كبر". قال أبو نواس:

حذّرتُكَ الكِبْرَ لا يغشاكَ مِيسَمُهُ ... فـإنّهُ مُـلْبَسٌ نَـازِعْـتَهُ اللهَ
يا بؤْسَ جَلْدٍ على جوفٍ مجوفةٍ ... يحوي مـقاذيـر إنْ كلّمْتَـه تاهَـا
يَرَى عَلِيكَ لَهُ فَضْـلاً يُبِينُ بـه ... إنْ نَالَ في العَاجِلِ السّلطانَ والجاهَا
إنّي لأمقتُ نَفْسِي عنْدَ نَخوَتِهَـا ... فكيف آمـنُ مقْـتَ اللهِ إيَّاهـا[١٢]

فهو في دعوته إلى ذم الكبر متأثر بما ثقفه من علوم القرآن والحديث، فنحن الآن أمام واعظ من وعاظ المسلمين، يدعو إلى التواضع، والتسامح، والتآخي، وهذه المعاني وغيرها من أهداف ديننا كما هو معروف.

---

١٢ الشريشي أحمد عبد المؤمن، **شرح مقامات الحريري البصري** (القاهرة: مكتبة القيم، ط٢، ١٩٧٨)، ج١، ص٢٣.

وزهديات أبي نواس تتسم بالدعوة إلى الأخلاق الحميدة، وأهمها الاعتراف بالخطأ، والندم على هذا الخطأ، فهو صريح في حالة الخطأ، لا تباهيا وإنما حسرة وندماً، فالرجوع عن الخطأ، أو الاعتراف به، مع الاقلاع عنه، حالة نفسية، تدل على قيمة المرء، وجلالة قدره، فهو لا يعرف المغالطة، وهل تنفع المغالطة أمام ا لله سبحانه وتعالى؟ وهو العليم الخبير؟

قد نرى في بعض زهدياته مسحة من أثر المنطق الذي شاع في زمانه في المجتمع البصري، ثم انتقل إلى الأمصار الإسلامية، فالتاريخ يحدثنا أن شاعرنا كانت له جلسات مع شيخ المعتزلة إبراهيم النّظّام، وكانت له تعريضات بمنطقه الذي اشتهر به، فقوله من قصيدة مشهورة له:

قلْ لِمنْ يدّعي في العلْمِ معرفةً   حفظْتَ شيئاً وغابتْ عنْكَ أَشياءُ[١٣]

لا تحْظُر العفْوَ إِنْ كنتَ امرَءاً حرِجاً   فإنّ حظركه في الدين إِزْرَاءُ

يدل دلالة واضحة على اطلاعه على هذا (المنطق) الوافد إلى المجتمع الإسلامي، والمعروف عند أهل العقل والدراية أن علماء الإسلام قد سخّروا المنطق اليوناني لخدمة الشريعة، فصار المعتزلي مثل العلاف يشار إليه بالبنان، وقد أسلم على يديه العدد العديد من غير المسلمين وذلك لقوة عارضته في الدين، المؤيد بالبرهان والمنطق.

وشاعرنا قد اقتبس قبسات من هذه الأفكار، وسخرها لتوبته، وجعلها وسيلة للوصول إلى رضا ا لله سبحانه وتعالى وغفرانه، فكان يكثر في قوله:

يا كبير الذنب عفو ا لله من ذنبك أكبر

لا أعتقد أن في هذا البيت مغالطة، وإنما هو الرجاء بعفو ا لله سبحانه، وقد مرت بنا بعض النصوص التي تحمل المعنى نفسه، ويعني هذا أن كبير الذنب والجرم، وكثير القبائح لا ييأس من رحمة ا لله إذا عقد العزم، وصدق النية في التوبة، فلم يخفَ على أبي نواس معنى قول ا لله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ا للهِ إِنَّ ا للهَ يَغْفِرُ الذُنُوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم﴾ (الروم:٥٣).

ومن أثر هذا التفكير الفلسفي السطحي تطرقه إلى نظرية (الحلول) التي أكثر القول فيها

---

١٣ بهجت، **الديوان**، باب الخمريات.

أهل التصوف، وهي فكرة أساسها إسلامي بحت، تدل على سلطان الله سبحانه وتعالى، وهيمنته على مخلوقاته، وعلمه الشامل الدقيق لمجريات الكون وما فيه، قال أبو نواس:

إذا ما خَلوتَ الدّهرَ يَوْماً فلا تقُلْ   خَلَوْتُ؛ وَلَكنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
ولا تَحْسَبَنَّ الله يَغْفَلُ سَاعــــةً   ولا أنّ مَا يَخفَــى عليـه يَغيـبُ
لهوْنَا لعمـرِ الله حتـى تراكمــتْ   ذُنوبٌ عَلَى آثَـارهِنَّ ذُنُـوبُ[١٤]

والبيتان الأولان مأخوذان من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَـمُ مَـا فِي السّـموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهـم ولا خمسة إلاّ هـو سادسـهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ (المجادلة:٧).

أما البيت الثالث فهو قطعة من الندم المحض الذي يوصله إلى التوبة إن شاء الله، فقد جاء في الحديث الشريف: "من اعترف بذنبه كمن لا ذنب له".

تتقدم السنون بأبي نواس نحو نهايته المحتومة التي كتبت على كل مخلوق، ويحس بدنو الأجل، بسبب السقام الذي صار يدب في جسده شيئاً فشيئاً، فاستسلم ضارعاً لله سبحانه وتعالى، راجياً عفوه فقال:

دب فيّ السقام سفــلاً وعلــواً   وأرانـي أموتُ عضـواً فعضـواً
ليـس تمضي من لحظـةٍ بـي إلاّ   نقصتنـي بمرها فيّ جـــزَوا
لهـفَ نَفْسِـي عَلى ليـالٍ وأَيَـا   مٍ تمليتهــنّ لَعِبـــاً وَلَـــهْواً
ذَهبتْ جـدتي بِطَاعَـةِ نَفْسِـي   وتذكرتُ طاعـــةَ اللهِ نضـوا
قد أسأتُ كُلّ الإساءةِ فاللّهُـــ   ـــمّ صفحاً عنّا وغفراً وعفواً

هذا هو الوتر الذي كانت تأنس نفسه للعزف عليه، والاعتراف بالخطأ مع طلب الصفح والعفو والمغفرة من الغفور الرحيم.

يقول ابن أبي قتيبة في كتابه القيم **عيون الأخبار**: إن أبا نواس قد اتخذ خاتماً نقش عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ويقول لعوّاده: إذا مت فضعوا هذا الخاتم في فمي، حتى إذا سئلت ما دينك؟ أقول: ما نقشه في الخاتم من الشهادتين.

---

١٤ **شرح الشريشي**، ج١، ص٢٤.

وقد اصطرع اليأس مع الرجاء في قلب أبي نواس وهو على فراش مرضه فأنشد هذه الأبيات والتي تفيض لوعة وحسرةً وندماً، وقد وجدت تحت وسادته حيث يقول فيها:

يا رَبِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبي كثْرةً   فَلقدْ عَلِمْتُ بأَنّ عَفْوَكَ أعظمُ
إنْ كَانَ لا يرجُوكَ إلاّ محسِنٌ   فبمن يَلوذُ ويَسْتَجيرُ المجرِمُ
أَدعُوكَ ربِّ كما أَمرْتَ تضرُّعاً   فَإذا رَدَدْتَ يَدِي فمن ذا يرْحمُ
مَالِي إليكَ وَسيلةٌ إلاّ الرَّجَا   وجميلُ عَفْوكَ ثُمّ إنِّي مُسْلمُ

وخلاصة ما تقدم نستطيع أن نؤكد أن رحلة شاعرنا قد ضمنت خاتمة حسنة في نهاية عمره وقبل أن تفيض روحه إلى الملأ الأعلى ويلقى ربه عاد إلى الله تائباً توبةً نصوحاً من جميع ما اقترف من الذنوب، ونادماً على خطيئاته فأسمعنا شعراً في الزهد صادق الإحساس، عميق الابتهال، يلجأ فيه إلى الغفور الرحيم بكل رجائه، ويتوسل إليه بكل ضراعة، معبراً عن أصدق الأفكار والعواطف، ملحاً في الدعاء بقوله:

قد أسأت كل الإساءة فاللهـ   ـم صفحاً عنا وغفراً وعفواً